جامعة بغداد.كلية التربية للبنات

قسم اللغة العربية

المرحلة الثالثة/ الصباحي

المادة : النقد العربي القديم.

د. صلاح كاظم هادي

نظرية الطبقات عند إبن سلّام الجمحي

مؤلف كتاب الطبقات

هو أبو عبد الله محمد بن عبيد الله بن سلاّم الجمحي .ولد في البصرة ، عام (139 هـ) وكانت وفاته في (231 أو 232هـ) ببغداد ، وبذلك عن عمّر نحو 91 عاماً. وروى عنه الرياشي والمازني وأحمد بن حنبل وابنه عبد الله بن حنبل وأبو خليفة وغيرهم . وأمّا شيوخه الذين روى عنهم وذكرهم في كتابه طبقات فحول الشعراء .. وأبوه هو ابن سلاّم ، وأخوه عبد الرحمن من رواة الحديث ، أبو خليفة هو ابن أخت محمد بن سلاّم صاحب الطبقات ، روى عنه كتبه ، وهو راوية للأخبار والأشعار والآداب والأنساب والحديث ، كان عالما ثقة أعمى .

مؤلّفـاته

ذكرها ابن النديم في الفهرست وهي :

1- الفاضل في علم الأخبار والأشعار
2- بيوتات العرب
3- طبقات الشعراء الجاهليين
4- طبقات الشعراء الإسلاميين
5- الحلال وأجر الخيل

وعلى الرغم من الاختلافات التي دارت حول وجود هذه الكتب وحقيقة أسمائها ، فإنّ أشهر كتاب طبقات فحول الشعراء . ولقد عد الدارسون أول كتاب ألّف في تاريخ الأدب العربي إذ يبرز أن ابن سلام درس الأدب واستوعبه ، فشرح وحلّل ورتّب وقدم أحكاماً نقدية .

سبب تأليف الكتاب.

لقد عاش ابن سلاّم الجمحي في مرحلة الحداثة الشعرية ، وهذا واقع تاريخي وكانت السبب الرئيس لإنتاج هذا الكتاب، فقد عاصر ابن سلاّم الشاعر المبدع والمجدد في الطريقة الشعرية ، أو هو صاحب ثورة التجديد الشعري ألا وهو الشاعر(أبو تمام الطائي 221هـ)، لكن تلك الحركة الشعرية التي تأسست باسم المولدين

والمحدثين علي يد مسلم الوليد، كانت تواجه مشكلة في الميدان الموازي للشعر ، وهو النقد الذي تخلف عن هذه الحركة الشعرية ، إذ كان نقداً راديكالياً يؤمن بالأنموذج القديم ، وهو يقدسه لارتباطه بالتفسير والرواية من أجل التحليل اللغوي والأستدلال بالشعر القديم من أجل التشريع الذي ارتبط بسياسات الدولة الإسلامية / فامتنع الرواة والنحاة والنقاد من الاعتراف بالشعر الحديث، ورفضوا روايته، والاستشهاد به، فضلاً عن اعتقادهم بأنه جاء مخالفاً للذوق العربي الذي يرتبط بأصالة الهوية التي تمجّدها بلاطات الخلافة الإسلامية آنذاك، ولذلك توقف الاعتراف بالشعراء المحدثين تمام ، وإن ابن سلّام الجمحي أخذ على عاتقه تأليف كتاب يضم فحول شعراء الجاهلية والإسلام، لكنه توقف إلى حدود زمنية معينة في العصر الإسلامي، ةهي حدود اعتراف الرواة بفصاحة هؤلاء الشعراء القدمان لصفاء أصولهم العربية، فضلاً عن تقدم زمنهم، فترك ابن سلّام الشعراء المحدثين نحو بشار بن برد (167هـ)، ومروان بن أبي حفصة (182هـ)، وأبي نواس (198هـ)، وأبي العتاهية (211هـ)، وأبي تمام (221هـ) ، وغيرهم الكثير.

القضايا النقدية في كتاب طبقات الشعراء لإبن سلّام الجمحي.:

. كثيرةٌ هي القضايا التي ناقشها ابن سلَّام الجمحي في مقدِّمة كتابه

.قضية انتحال الشعر

إن أهمُّ هذه القضايا هي قضية الشعر الموضوع الذي يُضيفه الرواة للشعراء الجاهليِّين وليس للجاهليين، وحديثُه عن انتحال الشعر في عصره كان طبيعيًّا، ولا سيما في المراحل الأولى لتدوين الشعر، فنبَّه بعض الرواة على أنَّ هناك شعرًا مصنوعًا. والذي يهمُّنا من هذا أن صاحب الطبقات برهَنَ على الشعر المصنوع، وكان "ابن سلَّام" يعتمد في ذلك على ما شاع عند العلماء من أفكار وأقوال، فـ"يونس بن حبيب" - كما جاء في مقدمة الكتاب - يتَّهم "حمادًا" الراويةَ وخلفا الأحمر بالكذب، قال "ابن سلام": "وكان أولَ مَنْ جمع أشعار العرب وساق أحاديثها "حمادٌ" الراوية، وكان غيرَ موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره، ويزيد في الأشعار كما أخبرني "أبو عبيدة" عن "يونس" قال: قدم "حماد" البصرة على "بلال بن أبي بردة"، فقال: "ما أطرفتني شيئًا"، فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر "الحطيئة" مديح "أبي موسى"، فقال: "ويحك، يمدح "الحطيئة" "أبا موسى" ولا أعلمُ به، وأنا أروي "للحطيئة"! ولكن دعْها تذهب في الناس"، وقال "ابن سلام": سمعتُ "يونس" يقول: العجب "لمن يأخذ عن "حماد"، كان يكذب ويلحن ويكسر

و يخبر "أبو عبيدة" أن "دؤاد بن متمم بن نويرة" قدم البصرة، فأتاه هو و"ابن نوح" فسألاه عن شعر أبيه "مُتمِّم"، " فلما نَفِد شعْرُ أبيه، جعل يزيد في الأشعار ويَصْنعُها لنا، وإذا كلامٌ دون كلام "متمِّم"، وإذا هو يحتذي "على كلامه فيذكُر المواضعَ التي ذكرها "مُتمِّم"، والوقائعَ التي شَهِدها، فلمَّا توالى ذلك، عَلِمنا أنه يفتعِلُه

بعد أن عرض "ابن سلام" لقضية الشعر الموضوع في مقدمة كتابه، أخذ مثالًا بعينه وحاول تفنيده، فهو يعيب على "محمد بن إسحاق" صاحب السيرة أنه هجَّن الشعر وأفسَدَه، وأورد في كتابه أشعارًا لرجال لم يقولوا شعرًا قطُّ، ونساءٍ لم يقُلْنَ شعرًا قطُّ؛ بل أكثر من ذلك، أورَدَ أشعارًا لـ"عاد وثمود"؛ إذ قال: ((ولم يكن ذلك له عذرًا - يقصد ابن إسحاق - فكتب في السِّيَر أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قطُّ، وأشعار النساء فضلًا عن أشعار الرجال، ثم جاوَزَ ذلك إلى عادٍ وثمود))

وقد أبطل "ابن سلَّام" ما قاله "ابن إسحاق" بأدلة أربعة، وهنا تكمُن طبيعة مناقشته لأهم القضايا التي عالجها في مقدمة كتابه، وأول هذه الأدلة هو دليل نقليٌّ، وهو القرآن الكريم، فالله عز وجل يقول: (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى) [النجم: 50، 51]، وقال في عاد: (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ) [الحاقة: 8]، وقال (وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ) [إبراهيم: 9]" ، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك عادًا وثمودَ فمَنْ حمل هذا الشعر وأدَّاه منذ ألوف من السنين؟

.قضية أولية الشعر العربي

فهذا سؤال طرحه "ابن سلام" من أجل أن يُثبت أن هذا الشِّعر الذي نسبه "ابن إسحاق" لرجال من عادٍ وثمودَ هو شعر منحول، ثم بالإضافة إلى هذا الدليل النقلي أكَّد "ابن سلام" على أن اللغة العربية لم تكن موجودةً في عهد عادٍ، قال: "قال "يونس بن حبيب": أوَّل من تكلَّم بالعربية "إسماعيلُ بنُ إبراهيم"، وأخبرني "مِسْمَع بن عبدالملك" أنه سمع "محمد بن علي" - هو "ابن الحسين" - يقول - قال "أبو عبيدالله": لا أدري أرفعه أم لا، ولا أظنه قد رفعه -: أوَّل من تكلَّم بالعربية ونسي لسان أبيه إسماعيلُ بنُ إبراهيم"، و"إسماعيل" كان بعد عادٍ، فكيف لشعر أن يوجد بلُغةٍ لم تكن موجودةً؟ ثم يؤكِّد "ابن سلَّام" أن عادًا من اليمن، وأن لليمانيين لسانًا آخَر، ويستدلُّ على ذلك بقول "عمرو بن العلاء": "العرب كلُّها ولد إسماعيل إلَّا حِمْير وبقايا جُرْهُم"، وقال أيضًا: " قال "أبو عمرو بن العلاء": ما لسان حِمْير وأقاصي اليمن اليومَ بلساننا، ولا عربيَّتُهم بعربيَّتِنا" ، ثم يعود "ابن سلَّام" ليؤكِّد على أن وجود القصيدة في الشعر العربيِّ لم يزدهر إلا بوجود بعض الشعراء، وأن العهد الذي عاشوا فيه قريب من الإسلام، فيقول: "ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلَّا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قُصِّدت القصائدُ وطُوِّل الشعرُ على عهد عبدالمطلب، وهاشم بن عبد مناف، وذلك يدلُّ على إسقاط شعر عادٍ وثمودَ وحِمْير وتُبَّع"، ويقول في موقع آخر: "وكان أوَّلَ من قصَّد القصائد، وذكَرَ الوقائع المهلْهِلُ بن ربيعة التَّغْلبي في "قتل أخيه كُلَيب

.قضية ضياع الشعر

وفي ثنايا مقدمة الكتاب وقف "ابن سلام" على قضية ضياع الشعر، ويعود ذلك حسب "ابن سلام" إلى الحروب التي هلك فيها كثيرٌ من حمَلة الشعر، قال "ابن سلام": "قال "ابن عون" عن "ابن سيرين" قال: قال "عمر بن الخطاب": كان الشعر عِلْمُ قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم"، ويقول في ذلك "عمرو بن العلاء": "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلُّه، ولو جاءكم "وافرًا لجاءكم عِلْمٌ وشِعْرٌ كثيرٌ

مفهوم الشعر عند إبن سلّام الجمحي .

ويمكن القول إن مفهوم الشعر عند ابن سلام الجمحي يتحدد في ثلاث جهات كالآتي: جهة المعنى وجهة الغرض وجهة البناء، وتُقَدم هذه الجهات عند جمعها مفهوما للشعر بحسب فَهْم ابنِ سلام ونقدِه مع مراعاة الظرفِ العام وهي:

أولا: جهة المعنى: وليس يُقْصَدُ بالمعنى هنا الغرض بل المقصود بالمعنى الأفكار المعبر عنها، يقول ابن سلام في مقدمة الكتاب:" وفى الشّعْر مَصْنُوع مفتعل مَوْضُوع كثير لَا خير فِيهِ وَلَا حجَّة في عَرَبِيَّة وَلَا أدب يُسْتَفَاد

وَلَا معنى يسْتَخْرج وَلَا مثل يضْرب"

ويقدم ابن سلام - ضمنيا- في كلامه هذا شروط أو مقاييس جودة الشعر ، من جهة المعنى، وتدخل كلها في مفهوم الشعر عنده؛ فالشعر الذي فيه خير هو الحجةُ في العربية، وكما قال التوحيدي في «الإمتاع والمؤانسة»: "قال ابن نباتة : من فَضْل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه، أعني أن العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللغويين يقولون : قال الشاعر ؛ وهذا كثيرٌ في الشعر ، والشعر قد أتى به ، وعلى هذا الأساس فإن الشاعر هو صاحب الحجة ، والشعر هو الحجة" ؛ فالشعر الذي لا حجة فيه لا خير فيه. والشعر الذي لا يستفاد منه أدب ولا يستخرج منه معنى ولا يضربُ فيه المثل لا خير فيه عند ابن سلام .

وبانتفاء هذه المكونات لا يستقيم مفهوم الشعر عند ابن سلام من جهة المعنى.

ثانيا: جهة الغرض: ومن جهة الغرض يقول ابن سلام:" وَلَا مديح رائع وَلَا هجاء مقذع وَلَا فَخر معجب وَلَا نسيب مستطرف"؛ فالمديح والهجاء والفخر والنسيب ليست سوى نماذج من أغراض الشعر العربي، ولكل منها سمة عند ابن سلام فسمة المديح الروعة، وسمةُ الهجاء الإقذاع، وسمة الفخر الإعجاب، وسمةُ النسيب الطرافة.

وإلا فعدد الأغراض الشعرية، من ناحية غير ثابت، ومن ناحية أخرى، فإن المواضيع الأكثر أهمية في عصر الناقد هي التي تبدو أساسية عند تقسيم الشعر إلى فنون وأغراض، لذلك كان النقاد يفضلون الحديث عن الأغراض الأكثر استعمالا من دون اللجوء إلى حصر نهائي لها
ويبدو أن الشعراء فطنوا لهذا المبدأ الذي يتأسس عليه مفهوم الشعر عند ابن سلام وغيره، فقد روي عن جرير أنه قال:" إني لمدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعود، نسبت فأطربت، وهجوت فأرديت، ومدحت فَسَنَّيتُ.... "، وكل هذا حديث عن الأغراض التي ذكرها ابن سلام وهي: المديح والنسيب والهجاء مع اختلاف سماتها عندهما.
وفي حديث الأخطل أيضا قال:" فَضَلْتُ الشعراء في المديح والهجاء والنسيب بما لا يُلْحَقُ بِي فِيه".ويبدو أن تكرر ذكر هذه الأغراض سواء عند جرير أو الأخطل يؤكد أنها تدخل في مفهوم الشعر عند هؤلاء انطلاقا مما حدده ابن سلام في مقدمة كتاب الطبقات.وفي التشبيب والنسيب يقول نابغة بني شيبان:

أَثْقِفِ الشعرَ مرتينِ وأَطْنِبْ في صُنُوفِ التشْبيبِ والأَمثَالِ

وقال ابن سلام:" فَلَو كَانَ الشّعْر مثلَ مَا وضع لِابْنِ إِسْحَاق وَمثل مَا روى الصحفيون مَا كَانَت إِلَيْهِ حَاجَة وَلَا فِيهِ دَلِيل على علم"ويظهر أن غاية الشعر عند ابن سلام ما كانت الحاجة إليه كما قال الحجاج للمساور بن هند: « لم تقول الشعر بعد الكبر؟ قال: أسقي به الماء، وأرعى به الكلأ، وتقضى لي به الحاجة، فإن كفيتني ذلك تركته» ، فجعل غاية الشعر قضاء الحاجة وهي عند ابن سلام من صميم مفهوم الشعر.

ثالثا: جهة البناء: أما من جهة البناء فيقول ابن سلام في مقدمة كتابه في حديثه عن محمد بن إسحق:" ثمَّ جَاوز ذَلِك إِلَى عَاد وَثَمُود فَكتب لَهُم أشعارا كَثِيرَة وَلَيْسَ بِشعر إِنَّمَا هُوَ كَلَام مؤلف مَعْقُود بقواف"، ويظهر من كلام ابن سلام أن الشعر عنده ليس هو الكلام المؤلف الذي ينتهي بقافية؛ ولذلك قال «فكتب» ولم يقل مثلا «ونظم»

لأن لنظم الشعر شروطا لا تنحصر في الوزن والقافية كما يفهم من كلامه . وقال في رده أيضا على محمد بن إسحاق:" فَنحْن لَا نُقِيم فِي النَّسب مَا فَوق عدنان وَلَا نجد لأولية العَرَب المعروفين شعرًا فَكيف بعاد وَثَمُود، فَهَذَا الكَلَام الواهنُ الخَبيثُ، وَلم يَرْوِ قطّ عربي مِنْهَا بَيْتا وَاحِدًا وَلَا راوية للشعر مَعَ ضعف أسره وَقلة طلاوته"؛ فالأسر: شدة الخلق والبناء، والطلاوة: الحسن والبهجة والقبول والرونق، وإنما وصف هذا الشعر بضعف الأسر وقلة الطلاوة زيادة في تحقير هذا الشعر الذي رواه ابن إسحق.

ومن جهة أخرى ليعلم أن هذه الأوصاف هي صفات الشعر المقبولِ عند ابن سلام؛ فالشعر الجيد هو الشديد الخلق، المحكم البناء ذو البهجة والرونق؛ لذلك وُجِدَ من الشعراء من تباهى بتجويد الشعر وحسن طلاوته، فقد قال عبدة بن الطبيب لأصحابه:« والله لو أن قوما طاروا من جودة الشعر لطرتم»..

<u>قضية الطبقات.</u>

يقع ضمن دلالة (الطبقة) معنى التوالي والترتب ، ومنها سميت السموات الطباق لمطابقة بعضها بعضا، أو أن تكون بعضها فوق بعض، وقال تعالى((ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا))، أي مرتبة بعضها فوق بعض، وتأتي الطبقة بمعنى الجماعة والطِبق بالكسر الجماعة من الناس، يعدلون جماعة أخرى مثلهم، وضمن دلالة الطبقة لغويا معنى لمرحلة زمنية ، فقيل أن الطبقة عشرون عاماً، وعدت الطبقة ساعة من الزمن، فتقول العرب طبق من الليل، أو تأتي بمعنى جزء من الزمن ، فطبق من الليل ، أي جزء منه ، وأخذت الدلالة الاصطلاحية من مجموع هذه المعاني اللغوية ، أي إنّ مصطلح الطبقة يتضمن معنى الجماعة والتراتب والمماثلة والحقبة الزمنية . وعلى أساس هذا الفهم تشكل مفهوم الطبقة الشعرية التي تظم مجموعة من الشعراء متماثلين في نتاجهم الأدبي ، ويمكن ترتيبهم بتسلسل وتراتب بحسب جودة شعرهم، وتضمهم مرحلة زمنية محددة. ولقد سبق ابو عبيدة (208 هـ) ابن سلام في تأليف كتابه (طبقات الشعراء)، وذكر ذلك ابن النديم (438هـ) في الفهرست، وقذ افد الجمحي من كتابة (فحولة الشعراء) للأصمعي، الذي ضمنه مفهوم الجودة في ضوء المعايير الجمالية للقصيدة العربية التقليدية وكذلك تضمن دلالة وفرة أ وكثرة في النتاج الشعري وشهرة الشاعر وتقدمه على أفراد جيله، وتميزه بنوع شعري أو بمكانة فنية أعرف له الرواة والنقاد في تمكنه منها، ولذلك كله وسم ابن سلّام الجمحي عنوان كتابه بـ(طبقات فحول الشعراء).

وإن القضية المهمة التي شكَّلت القسط الأكبر من مؤلَّف "ابن سلام": حديثُه عن الشعراء، وجعلهم طبقاتٍ، ولم يذهب إلى الشعر نفسه ليُظهر جماله الفنيَّ؛ إنما ذهب إلى الشعراء أنفسهم، ذاكرًا لهم ما يراه جيدًا، من دون أن يذكُر سبب الجودة، فالمقياس الذي اعتمده "ابن سلام" هو كثرةُ الشعر وجودته، فبقدر كثرة شعر الشاعر وإجادته، تكون منزلتُه في أن يُوضَع في الطبقة السابعة أو الثامنة وهلُمَّ جرًّا؛ فقد وضع "ابنُ سلَّام" "الأسودَ بن يَعْفُر" في الطبقة الخامسة من الجاهليِّين، وقال فيه: "وله واحدةٌ طويلةٌ رائعةٌ لاحقةٌ بأجْودِ الشعر، لو كان شَفَعها بمثلها قدَّمناه على مرتبته" ويقول في شعراء المدينة : "وأشعرهم حسان بن ثابت، وهو كثير الشعر جيده

وقد تحدَّث أيضًا عن أثر البيئة في الشعر فكان "عدي بن زيد" ليِّن اللسان، سهل المنطق؛ لماذا؟ لأنه كان يسكُن الحيرة ويراكن الريف، أليس ذلك صريحًا في إيمان "ابن سلام" ومَنْ تقدَّمَه بأثر البيئة في الشعر والشعراء؟

ويقول أيضًا: "وبالطائف شعر، وليس بالكثير"؛ لماذا؟ لماذا لم يكثر الشعر في الطائف أيام الجاهلية؟ قال ابن سلام: "وبالطائف شعر وليس بالكثير، وإنما يكثُر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء؛ نحو حرب الأوس

والخزرج، أو قوم يُغيرون ويُغار عليهم"، ويقول: "والذي قلَّل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة، ولم يحاربوا، "وذلك الذي قلَّل شعر عمان وأهل الطائف

إنَّ قضية تصنيف الشعراء أخذت الحيِّز الأكبر من الكتاب، فقد وضع "ابن سلام" في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية: "امرأ القيس" و"النابغة الذبياني" و"زهير بن أبي سلمى" و"الأعشى"، ويعتمد "ابن سلام" في تقديمه لهؤلاء الشعراء على آراء النُّقَّاد القدامى من دون أن يضيف إليها أيَّ جديدٍ، فمثلًا يقول في شعراء هذه الطبقة: "أنا "أبو خليفة" قال: أنا "ابن سلام" قال: أخبرني "يونس بن حبيب" أن علماء البصرة كانوا يُقدِّمون "امرأ القيس بن حُجْر"، وأهل الكوفة كانوا يُقدِّمون "الأعشى"، وأن أهل الحجاز والبادية كانوا يُقدِّمون "زهيرًا" و"النابغة"، أما النابغة الذبياني، فيظهر أن هنالك إجماعًا على تقديمه على سائر الشعراء منذ العصر الجاهلي، حين جُعِل حَكَمًا على الشعراء في سوق عُكاظ.

فإذا تحوَّلنا إلى أسباب تقديم هؤلاء الشعراء، وجدنا من أسباب تقديم "امرئ القيس" أنه سبق الشعراء إلى تشبيهات وصور فنية تَبِعه فيها الآخرون؛ كالبكاء على الديار، واستيقاف الصَّحْب، وتشبيه النساء بالظباء والبيض، والخيل بالعِقْبان والعِصي، ويُضاف إلى هذا كله أنه جدَّد في طريقة القول الشعري حين فصل بين النسيب والمعنى، وأن شعرَه قريبُ المأخذ، قال "ابن سلام": "ولكنه - يعني امرأ القيس - سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، استحسنتها العرب واتَّبعته فيها الشعراء، منها استيقاف صَحْبه، والبكاء في الديار، ورقَّة النسيب، وقربُ المأخذ، وشبَّه النساء بالظباء والبيض، وشبَّه الخيل بالعِقْبان والعصي وقيد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وفصل بين "النسيب وبين المعنى، وكان أحسن طبقته تشبيهًا

فأول معيارٍ يجعل الشاعر في طبقة متقدِّمة مرتبطٌ بقدرة الشاعر على طَرْق موضوعات جديدة، وابتداع صور فنية تفتح أُفُق الإبداع أمام الشعراء الآخرين.

وأما كون "النابغة الذبياني" من الطبقة الأولى، فيستند "ابن سلام" في ذلك إلى قول من يحتج لشعرية النابغة حيث قال: "وقال من احتج للنابغة: كان أحسنهم ديباجةَ شِعْرٍ، وأكثرهم رَوْنق كلام، وأجزلهم بيتًا، كأن شعرَه كلامٌ ليس فيه تكلُّف، والمنطق على المتكلِّم أوسعُ منه على الشاعر، والشاعر يحتاج إلى البناء والعَرُوض "والقوافي، والمتكلِّم مُطلَقٌ يتخيَّرُ الكلام

والملاحظ أن كلمات مِن قِبَل ديباجة الشعر، ورونق الكلام، وجزالة البيت - مصطلحات غير واضحة الدلالة، ولعلَّها كانت تدلُّ على صفات محددة لدى "ابن سلام"، فالشيء الذي يجعلها غير محددة هو: هل شعر النابغة وحده يتميَّز بهذه الصفات؟ فيُمكن أن نأخذ أي قصيدة ونقول فيها هذا الكلام.

وأما أهل النظر كما جاء في "طبقات فحول الشعراء"، فقدَّموا "زهيرًا"؛ لأنه كان كما قال "ابن سلام": "وقال أهل النظر كان "زهير" أحكمَهم شعرًا، وأبعدَهم من سخف، وأجمعَهم لكثيرٍ من المعنى في قليلٍ من المنطق، "وأشدَّهم مبالغةً في المدح

أمَّا في الطبقة الثانية، فقد وضع فيها "ابن سلام" "أوس بن حجر"، و"بشر بن أبي خازم الأسدي"، و"كعب بن زهير"، والشاعر "الحطيئة"، فـ "ابن سلام" في هذه الطبقة يعدُّ "أوس بن حجر" نظيرَ الأربعة المتقدِّمين، إلَّا أنه وضعه في هذه الطبقة؛ لأنه اقتصر على أربعة في كل واحدة.

ووضع في الطبقة الثالثة: "أبا ليلى نابغة بني جعدة" وهو "قيس بن عبدالله"، و"أبا ذؤيب الهذلي"، و"الشماخ بن ضرار"، و"لبيد بن ربيعة".

وتغيب المعايير التي وجدنا ابن سلام يُقدِّم أفراد الطبقة الأولى بسببها في تقييم شعراء الطبقات اللاحقة، ويبرُز لدينا مجموعةُ معاييرَ تبدو في أغلبها مبهمةً غيرَ واضحةٍ؛ "فالحطيئة" وُضِع في الطبقة الثانية؛ لأنه "متين الشعر، شرود القافية، وكان راوية لزهير"، وأما أفراد الطبقة الثالثة، "فأبو ذؤيب" كان "شاعرًا فحلًا، لا غميزة فيه ولا وهن"، و"الشماخ" كان "شديد متون الشعر، أشد أسر كلام من لبيد، وفيه كزازة، ولبيد أسهل منه منطقًا"، لا يمكن أن نقول في هذا الكلام سوى أنها مجموعة آراء انطباعية، لعلَّها غير مفهومة إلَّا عند صاحبها.

ومن المقاييس المهمة في إلحاق الشاعر بالفحول، ووضعه في طبقة معينة: مقياس الكمِّ، وهو مبدأ اعتمده "ابن سلام" في تصنيف الشعراء، فقد وضع في الطبقة الرابعة "طرفة بن العبد" و"عبيد بن الأبرص"، و"علقمة بن عبدة"، و"عدي بن زيد"، وذكر أن موضعهم مع الأوائل، وإنما أخلَّ بهم قلَّةُ شعرهم عند الرواة؛ حيث قال: "وهم أربعة رهط فحول شعراء موضعهم مع الأوائل؛ وإنما أخلَّ بهم قلَّةُ شعرهم بأيدي الرواة"، وكذلك فعل في الطبقة السابعة حين وضع فيها "سلامة بن جندل" و"حصين بن الحمام" و"المتلمس" و"المسيب بن علس بن عمرو بن قمامة"، ونبَّه على أن قلَّة شعرهم هي سبب تأخيرهم، وذلك عندما قال: "أربعة رهط محكمون، في أشعارهم قلة، فذاك الذي أخَّرهم"

وعلى الرغم من تأكيد "ابن سلام" أن الشعر العربيَّ قد ضاع جزء لا يُستهان به منه، فإنه وضع هؤلاء الشعراء في هاتين المرتبتين لقلَّة شعرهم المتداول، ولم تشفع لهم جودة أشعارهم الباقية في التقدُّم في سلَّم الطبقات.

وقد وضع في الطبقة الخامسة كلًّا من "خداش بن زهير"، و"الأسود بن يَعْفُر"، و"أبي يزيد المخبل بن ربيعة"، و"تميم بن أبي مقبل"، ووضع في الطبقة السادسة من الشعراء الجاهليين: "عمرو بن كلثوم"، و"الحارث بن حلِّزة"، و"عنترة بن شداد"، و"سويد بن أبي كاهل"، ووضع في الطبقة الثامنة كلًّا من "عمرو بن قميئة"، و"النمر بن تولب"، و"أوس بن غلفاء الهجيمي"، و"عوف بن عطية بن الخرع"، ووضع في الطبقة التاسعة كلًّا من "ضابئ بن الحارث"، و"سويد بن كراع العكلي"، و"الحويدرة" واسمه "قطبة بن محصن"، و"سحيم"، ووضع في الطبقة العاشرة كلًّا من "أمية بن حرتان"، و"حريث بن محفظ"، و"الكميت"، و"عمرو بن شأس".

<u>الأسس النقدية لابن سلام الجمحي.</u>

ومن الوقوف على كل طبقة، نُلاحظ أن معايير الفحولة في الطبقة الأولى يجري أغلبها وفق أسس موضوعية إذا ما قُورنت بمعايير الطبقات اللاحقة، "فـ "امرؤ القيس" هو أول من سبق الشعراء إلى صور شعرية جديدة، و"زهير بن أبي سلمى" أقدرُ على إيجاز القول والمبالغة فيه، و"الأعشى" أكثر الشعراء عَرُوضًا وقصائدَ طويلةً، على حين أن معايير الفحولة في الطبقات الأخرى مُبهمة، وتعتمد على أُسُس لا تنتمي إلى الشعر.

بعد أن أنهى "ابن سلام" عرضه للطبقات العشر، وتبيان الأُسُس التي تُميِّز كلَّ شاعر عمَّا سواه، وتجعله في طبقته التي هو فيها، انتقل إلى طبقة أصحاب المراثي التي تضمُّ "مُتمِّم بن نويرة" و"الخنساء" و"أعشى باهلة" واسمه "عامر بن الحارث" و"كعب بن سعد الغنوي"، وتظهر "الخنساء" الشاعرة الوحيدة في كل طبقات "ابن سلام"، مما يعني أنها تخطَّت حاجز الفحولة الذي رسمه المؤلِّف وانضمَّت - وهي الأُنثى - إلى قائمة الفحول

الخاصة بالشعراء وحدهم؛ لأن أهميتها الشعرية جعلت من المستحيل تخطيها في هذا المجال، أو إغفال ذكر اسمها.

وأما طبقة شعراء القرى العربية، فتضمُّ خمسة شعراء من المدينة، وتسعةً من مكةَ، وخمسةً من الطائف، وثلاثةً من البحرين، وعلى هذا يكون المجموع اثنين وعشرين شاعرًا، أشهرهم: "حسان بن ثابت" و"قيس بن الخطيم" من المدينة، و"عبدالله بن الزَّبعرى" و"ضرار بن الخطاب" من مكة، و"أمية بن أبي الصلت "و"أبو محجن الثقفي" من الطائف، و"المثقَّب العبدي" و"الممزَّق العبدي" من البحرين، ويُشير "ابن سلَّام" إلى أن أشعر هذه الطبقة "حسان بن ثابت".

وتأتي طبقة شعراء اليهود في نهاية هذا القسم، وتضم ثمانية شعراء، أشهرهم: "السموءل بن عادياء" و"كعب بن الأشرف" و"سعية بن العريض"، وليس في هذه الطبقة ما يُشير إلى مسوِّغ يُمكن أن يوضع هؤلاء الشعراء في هذه الطبقات استنادًا إليه، إلا أن المقاييس الواضحة هنا هي الموضوع الشعري والمكان والديانة.

أما أصحاب المراثي فيلخص خبرهم بالقول: «أولهم المتمم بن نويرة..رثى أخاه مالكاً، والخنساء...رثت أخاها صخراً ومعاوية، وأعشى باهلة... وكعب بن سعد... رثى أخاه أبا المغوار»، وهو يذكر كل شاعر بسلسلة نسبه و يطوف بك في قصته ويعلق على جودة شعره، «وبكت الخنساء أخويها صخراً ومعاوية، فأما صخر فقتلته بنو أسد، وأما معاوية فقتلته بنو مرة بن غطفان، فقالت في صخر: وإن صخراً لتأتمّ الهداة به».

وبالنسبة لأشهر الشعراء الذين ينتمون إلى القرى العربية: المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين «وأشعرهن قرية المدينة، شعراؤها الفحول خمسة، ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس. فمن الخزرج حسان بن ثابت ومن بني سلمة كعب بن مالك ومن بلحارث بن الخزرج عبد الله بن رواحة ومن الأوس قيس بن الخطيم من بني ظفر وأبو قيس بن الأسلت من بني عمرو بن عوف، وأشعرهم حسان بن ثابت»، والكثير من شعر حسان بحسب الجمحي موضوع.

وينتقل الجمحي بعد ذلك لطبقات الشعراء في الإسلام، ويضع في الطبقة الأولى جريراً والفرزدق، ويوازن بينهما، ثم يتبع ذلك بفصل بعنوان «مقلدات الأخطل» يورد فيها أشعار الأخطل ويحللها بدقة. وفي الطبقة الثانية على سبيل المثال يضع البعيث «واسمه خداش بن بشر بن أبي سفيان بن مجاشع بن دارم وسمي البعيث لقوله: «تبعَّث منّي ما تبعَّث بعد ما/ أُمرّت حبال كل مرّتها شذرا»، ثم يذكر أسباب عدم شهرة البعيث» وكان البعيث شاعراً فاخر الكلام حر اللفظ، وقد غلبه جرير وأخمله، وكان قد قاوم جريراً في قصائد ثم ضج إلى الفرزدق و استغاثه». ويتابع رصده لتاريخ الشعراء وقصص حياتهم وأهميتهم الإبداعية، ففي الطبقة السادسة على سبيل المثال يقول: «حجازية أربعة رهط وهو عبيد الله بن قيس من بني عامر بن لوي وإنما نسب إلى الرقيات؛ لأن جدات له توالين يسمين رقية، والأحوص بن عبدالله بن محمد بن عاصم وهو أبو الأفلح من بني الخزرج، وجميل بن معمر بن حبتر العذري، ونصيب مولى عبدالعزيز بن مروان».

مع قراءة كتاب ابن سلام الجمحي «طبقات الشعراء» بإمكانك أن تطّلع على المستويات كافة، فالشعر هنا وبحق ديوان العرب، وهناك بين السطور قواعد منهجية لنقد الشعر بصفة عامة، و لا سيما في المقدمة التي تسبق الكتاب الذي يذهب بعض الباحثين إلى أنه يتوزع على كتابين في الأصل تم الدمج بينهما بعد ذلك، هو ينتقد بدايات الشعر العربي، يستند إلى منهج السلف، ويسبق المعاصرين ممن أثاروا ضجة حول الشعر العربي وبدايات اللغة واعتقدوا أنهم جاؤوا بنظريات لم يسمع عنها أحد من قبل، منهج يعتمد على القرآن الكريم وحديثه

عن الشعوب العربية الغابرة، وهناك منطق التاريخ والرواة والأدلة العقلية، ويستعمل ابن سلّام الجمحي كل ذلك ليؤسس لبدايات نقد الشعر العربي في تلك المرحلة التي تدور حول زمن امرئ القيس كما سبق وأشرنا، ثم هناك الجمحي الآخر المتذوق للشعر وجمالياته، والجمحي الراوي، والإخباري، والمؤرخ الذي تشعر وأنت تقرأ أنه يلخص لك من خلال سير الشعراء و مواقف حياتهم المختلفة جانباً مهماً من التاريخ العربي في الجاهلية والإسلام، ثم هناك منطق الموازنات وفكرة تفضيل شاعر على آخر، و فكرة تتبع نسب كل شاعر وقبيلته والأحداث التي دفعته لقول أشهر قصائده، وهناك الإدراك الكامل بالظرف الذي أدى إلى شهرة شاعر على آخر معاصر له، ثم هناك الناقد الذي لا يقع أسيراً لشهرة أحد ولا تتملكه أوهام سلطة الراوي، فينتقد حماد الراوية، ويتجول بك بين لهجات العرب، ويوظف فكرة القياس العقلي في تفضيل وجهة نظر على أخرى، هو النقد المبكر الذي يحتاج منا إلى مزيد من الفهم والدراسة، فضلاً عن الاستمتاع بالقراءة الأدبية